

الظواهر المجتمعية للثورات العربية

أمينة خيري

كاتبة صحفية في جريدة الحياة الدولية

رياح عاتية مصحوبة برمال صفراء ملبدة بغيوم سوداء تهب هباً على المنطقة! قد تكون مقدمة لفصل الربيع الذي يتعلم أبناء المنطقة في مدارس المنطقة أنه الفصل الذي تنفتح فيه الزهور، وتزقزق فيه الطيور. الطريف أن الغالبية العظمى من دول المنطقة يمر عليها الربيع مروراً جغرافياً بحكم تعامد الشمس على خط الاستواء، لكنه لم يكن يوماً ربيع الزهور والورود والطيور.

طائر السنونو الذي بات معروفاً في أرجاء المنطقة ليس بسبب المعلومات العلمية التي تؤكد أنه من الطيور الصغيرة المهاجرة، ولكن عبر قصيدة "طائر السنونو" الشهيرة التي تم التعبير عنها في فيلم شهير، رمزت إلى الفساد المتغلغل إلى الجذور، فصاحب القصيدة يبيعه ببضعة جنيهات لرجل الأعمال الثري ليُدعي أنها من تأليفه، لزوم الـ "برستيج" الثقافي الذي يفتقده لجهله.

جهل رجل الأعمال وعنجهيته، وفق الشاعر المثقف وجوعه وهو الذي باع نفسه وقلمه وبنات أفكاره لأول مشتر من أبرز العوامل التي أدت إلى اندلاع رياح وأعاصير الربيع العربي. وفي هذا العام الدراسي الذي شهد دخول بلدان عربية في مراحل انتقالية تتبع الثورات، واستمرار الفعاليات الثورية في بلدان أخرى، ومحاولات انطلاق شرارات عدة في بلدان مازالت تنتظر دورها، تجاهد ثورات الربيع العربي لتغيير ما بالأقوام، لكن يقول الله في كتابه الحكيم {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}. (سورة الرعد).

في بلدان الربيع العربي، يعكف البعض على تغيير ما بأنفسهم، ويعكف البعض الآخر، إما على الإبقاء على ما بأنفسهم أو بالإبقاء على ما ظل طابقاً على أنفاسهم وأنفاس من حولهم.

رياح افتراضية

نسائم محاولات التغيير العربي كانت ومازالت افتراضية المنشأ، أي أن عقب الحرية هب على المنطقة عبر "عفاريت الإنترنت"، ومحاولات الإبقاء على الثورات حية، رغم المحاولات المستميتة لوأدها، تتبع عبر الشبكة العنكبوتية أيضاً.

عفاريت الإنترنت، تلك الانتفاخة الشبابية العربية التي دعت الدراسات والأبحاث إلى استثمارها لكن القادة لم يكتفوا بكتبها وقمعها، بل استخدموا ضدها السلاح الأكثر فتكاً ألا وهو التجاهل. عتاة الفكر ونخبة الساسة الذين نعتوا شباب الـ "فايسوك" المصريين بـ "شوية العيال" وجدوا أنفسهم في "حيص بيص" بعد ما نجح "شوية العيال" في إسقاط نظام، أو فلنقل الإطاحة برأسه.

"شوية عيال"

ولو أن مصرياً أو عربياً أمعن النظر في بلورة مسحورة قبل بضع سنين، ثم تتبأ بأن "شوية عيال" سيقفون على قدم المساواة مع الرئيس السابق مبارك ضمن الشخصيات الأكثر موضوعاً للبحث على محرك "جوجل" الشهير لاتهموه بالخلل العقلي. وحتى قبل عامين مضياً، كنت إذا استوقفت مواطناً عربياً في الشارع، وسألته عن رأيه في "ديموقراطية الإنترنت" لرد عليك بنظرية "الغول والعنقاء والخل الوفي"، مضيفاً إليها ما تتحدث عنه باعتباره المستحيل الرابع.

اليوم أضحى المستحيل الرابع محركاً رئيسياً من العوامل المحركة للشارع العربي وللبيت العربي. والسطور التالية ليست من وحي الخيال أو من نسج خيوط العنكبوت الافتراضية، لكنها حدثت وعلى الأرجح يحدث مثلها بشكل أو بآخر يوماً في بيت عربي في بلد عربي ما.

عاد الزوج إلى البيت بعد يوم عمل طويل. توجه إلى غرفة النوم ليبدل ملابسه استعداداً لتناول وجبة العشاء، ليفاجأ بلافتة ضخمة مطبوعة على الكمبيوتر ومعلقة على المرأة تقول: "الزوجة تريد إسقاط العشاء".

ظنّ الزوج أنها دعابة، لكن وجه الزوجة لم يحمل أيّاً من إمارات الدعابة. باغتته بسيل من الجمل النارية: "أعود من عملي في الوقت الذي تعود فيه، وعلى رغم ذلك، أنا مُطالب بالطهو وتجهيز العشاء ليكون ساخناً وقت تشريفك. أطلب إما بمشاركة منك في تجهيز الطعام، وإما بطلب وجبات جاهزة، وإما بإسقاط الوجبة برمتها".

الوضع تغير

انظر إلى أي سيارة أو فصل دراسي أو جهاز "لاب توب" (كمبيوتر محمول) في قاهرة المعز. لن يخلو أي منها من لافتة أو اثنتين تحمل مطلباً أو تعكس شعوراً أو تترجم رغبة، غالباً ما يكون حاملها غير قادر على الإعلان عنها طيلة الوقت.

مئات السيارات الملاكي التي يقودها نساء ورجال ينتمون إلى الطبقة المتوسطة التي ظلت تعاني صمتاً مزمناً وعدم قدرة على التعبير العلني طيلة عقود تجوب الشوارع، وعليها لافتات صغيرة تحمل العديد من الرسائل والقناعات.

سمر (43 سنة) كتبت قائمة من الأمنيات والطلبات التي لم تكن تجرؤ على التعبير عنها علانية، قبل ثورة يناير، خوفاً من سخرية من حولها، تقول إنها كتبت قائمة من الالتزامات على كل من شارك في الثورة ولو بالتأييد، "ذكرت عشرة مطالب منها عدم إلقاء القمامة في الشارع، وإلغاء منظومة الوساطة والمحسوية، والامتناع عن دفع الرشاوى، وغيرها. وكنت حين أطلب، حتى أقاربي، بمثل هذه التصرفات ينظرون إليّ وكأنني قادمة من كوكب آخر، أما اليوم فالوضع تغير، ولو أردنا أن نعيد بناء المجتمع فلنبدأ بسلوكياتنا".

التربية والتعليم

سلوكياتنا تحمل وجهين، أحدهما تعليم والآخر تربية. ولما كانت التربية مهمة وثيقة الصلة بالأمهات، فإن الأم العربية عموماً والمصرية تحديداً تلعب دور البطولة هي الأخرى جنباً إلى جنب مع أبنائها من الشباب. كانت "ست الحبايب" كما غنت لها الراحلة الرائعة فائزة أحمد، ثم تحولت على يد السندريلا سعاد حسني إلى "مولاتي" التي "لها سلاماتي واحتراماتي وقبلاتي"، وفي منصبها السابقين كانت تحصل على قبلة من ابنتها هنا، أو هدية من ابنها هناك تعبيراً عن الحب والامتنان والعرفان.

لكن اليوم، قد تحصل "ماما" على صاعق كهربائي هدية لتأمين نفسها في الشارع، وقد تجد رسالة مثبتة على باب الثلاجة صبيحة يوم عيد ميلادها يقول نصها: "كل سنة وأنت طيبة يا أمي. كان نفسي أشتري لك هدية، لكن ما باليد حيلة، وما بالجيب مليم". فقد فقد الابن وظيفته نتيجة المرحلة الارتباكية ومسامها العلمي "انتقالية". وقد لا تجد هذا أو ذاك، لكن تفاجأ برسالة تحمل توقعاً من مجموعة شبابية يؤكدون لها فيها أنهم أبناؤها، وذلك بعد ما أصبحت أمماً من دون ابن سقط شهيداً في ثورة هنا أو مجزرة هناك أو في انفلات أمني بات طبيعياً.

وكان من الطبيعي أن يكون أبرز معاول هدم الأنظمة الفاسدة التي ولدت جهلاً وأفرزت غبناً النظام التعليمي الذي عاقب طالبة الصف الأول الثانوي آلاء فرج بحجب نتیجتها لأنها كتبت في موضوع التعبير أن سبب أزمة مصر الاقتصادية هو الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش لتدخل أمريكا في شؤون مصر الداخلية، ولم يشفع لها إلا تدخل الرئيس السابق، هو نفسه النظام التعليمي الذي أورد سؤالاً في امتحان اللغة العربية يطلب من الطلاب كتابة برقية تهنئة للإخوان لفوزهم في انتخابات مجلس الشعب (البرلمان) وأخرى للإشادة بالمجلس العسكري!

ويظل أحلى إنجازات الربيع في مجال التعليم، ليس إعادة زرع بنور النفاق وغرس مبادئ الرياء، لكن في براءة التعبير وعفويته، حتى وإن كانت تعكس قدراً هائلاً من فشل النظام في تعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة. سؤال التعبير في امتحان نصف العام

للفصل السادس الابتدائي جاء عن واجب الطالب تجاه الأم، فما كان من أحد الطلاب إلا أن كتب السطور التالية: "الأم واجبك عليه تعمل لنا الأظعمة، وتلبسنا وتأكلنا الطعام وتعمل لنا روز ولحمة. وتنزل الأم السوق وتجيب روز ولحمة وسبانخ. وتحميننا بالصابونة والليفة، وتدينا فلوس، وتجيب لنا الأدوات، وتهتم بكل شيء. وصلى الله على سيدنا محمد".

مبدئياً المطلوب كان أن يكتب الطالب عن واجبه تجاه الأم، وليس العكس. لكن الأهم من ذلك، ومن ركافة المستوى اللغوي والإملائي، هو أن كلمات الطالب المذيلة بالصلاة على سيدنا محمد تعكس اعتماداً كلياً على الأم باعتبارها عمود البيت والممول الرئيسي، إن لم يكن الأوحد فيه.

امرأة الربيع

النساء، المنعوتات تارة بـ "ألف الكائنات" وتارة أخرى بـ "العورات المتنقلة" وثالثة بعمود البيت وأساسه يعشن حالياً أياماً عصيبة بعد ما تحولت رياح الربيع العربي إلى سيوف مسلطة على رقابهن!

تنتحب أمهات الشهداء في مصر في ميدان التحرير، وتعيش التونسيات هاجس فقدان حقوق اكتسبها في ظلّ النظام السابق، وتترقب الليبيات مستقبلاً مجهولاً، وتتساءل الكويتيات عن مصير حقوقهن المكتسبة، وتطالب اللبنانيات بحقوق يعتبرنها بديهية كحقوقهن بالجنسية لأبنائهن، وتتحسس السعوديات الطريق نحو نيل حقوقهن، وتشعر العراقيات بقلق تجاه وضع المرأة في ظلّ دستور يرسخ الطائفية. وفي ظلّ لائحة هموم تطول تعبيراً عن واقع المرأة العربية، تحاول مجموعة عربية متعددة الجنسيات جاهدة رسم خريطة طريق للانتقال بالنساء العربيات إلى "صيف مثمر".

فعلى رغم أن المرأة العربية لعبت دور البطولة مناصفة مع الرجل في الربيع العربي، إلا أن واقع الحال أشار إلى أنها كانت في طليعة من تم العصف بهن وإقصائهن عقب

انتهاء الثورات، مرة بحجة أن أولويات المرحلة الراهنة لا تمتنع فيها لحقوق المرأة، ومرة بدعوى أن المرأة مكانها البيت ويمثلها زوجها أو أخوها أو أبوها أو نائبها في البرلمان!

ويبدو جلياً أن الجدل الشديد المتوقع في كل ما يختص بثالوث الدين والسياسة والمرأة، لا يمكن حسمه لمصلحة الجميع، إلا بتضمين الحقوق في الدساتير الجديدة والمعدلة حتى لا ينفرد تيار ما أو أصحاب أيديولوجية بتفسير الحقوق وفق مفاهيمهم الخاصة. ولعل المأزق المصري الذي بدأ بفخ تشكيل لجنة ذكورية بحثة ينتمي بعضها إلى تيارات دينية سياسية لسنّ تعديلات دستورية تم استفتاء المصريين عليها لتجد المرأة المصرية نفسها، ومعها الكثير من الحقوق المدنية، في خطر.

إلا أن الدستور منفرداً كما القوانين وحدها لا تضمن حقوق النساء (أو غيرها من الحقوق)، مثلما يظهر في التجربة العراقية، فرغم أن نسبة تمثيل المرأة في البرلمان العراقي بلغت ما يزيد عن 26 في المائة، إلا أنه لوحظ تراجع مشاركة المرأة في تقلد المناصب الوزارية والعليا.

وبعيداً من حديث النخب وخبراء الدساتير والقوانين والمشاركة الحزبية في الحياة السياسية، يتحدث المشهد الانتخابي الرئاسي المصري عن وضع المرأة الحاضرة الغائبة.

على عرش الانتخابات

فبقلوبهن المتسامحة، وإرادتهن التي لا تنكسر، وعزمهن الذي لا يلين، تم تنصيب نساء وشابات مصر على عرش طوابير الانتخابات الرئاسية، ومن قبلها البرلمانية.

المشهد الانتخابي الظريف اللطيف الجميل كان السمة الظاهرة في انتخابات الرئاسة. نقاب أسود ممتزج بألوان الأصفر والأحمر والأزرق من أرقى بيوت الأزياء الباريسية متداخلة برمادية زي الراهبات المكمل بالبيج والبنّي ألوان الخمار الرائجة، جميعها شكل لوحة موزاييك رائعة أمام اللجان الانتخابية نصبت المرأة على عرش الساحة السياسية.

وهو تنصيب غير قابل للتزوير أو المزايمة أو النفاق، لاسيما أنه جاء عقب سلسلة من الجهود العاتية التي بذلها الجميع طيلة الأشهر الماضية لإقصاء المرأة وسلبها حقوقها والانتقاص من كرامتها والتقليل من شأنها. فرغم جهود برلمانية لإعادة عمليات الختان المجرمة، وتخفيض سن الزواج للسماح بزواج الطفلة الأنثى، وإلغاء قانون الخلع، وإخضاع الفتيات والنساء المحتجزات في اعتصامات وتظاهرات لكشوف عذرية، ناهيك عن إقصاء النساء من التشكيلات الوزارية المتعاقبة، ولجان وضع الدستور المتعثرة وشيوع فتاوى الحجاب والنقاب وضرورة عودة المرأة إلى مكانها الطبيعي في البيت، خرجت نساء مصر وكأن كل تلك المحاولات الإقصائية زوابع في فجاجين اعتدنها.

زوبعة دستورية

أحد أبرز الزوابع المرتقبة هو زوبعة الدستور الذي تم إقصاء المرأة منه قلباً وقالباً. ووفق ما تؤكد مستشارة النوع الاجتماعي في شركة «شيفولوشون» البريطانية ليزلي عبد الله منذ هبوب رياح التغيير العربية، فإن أحد المخارج من المأزق المعتاد في الثورات والصراعات التي تلعب فيها المرأة دوراً فاعلاً لتجد نفسها عقب انتهائها مطالبة بالعودة إلى الحظيرة هو "الكوتا" في التمثيل البرلماني، ولو لفترة زمنية محددة. تقول عبد الله: "على النساء في مناطق الصراعات والثورات والتغييرات الكبرى أن يحصلن على شيء ما الآن، وإلا سيجدن أنفسهن مضطرات للانتظار مئة سنة أخرى".

وفي حين تترقب النساء العربيات، منهن من مواقع نضالهن لنيل حقوق طال سلبها، وأخرى يجري اغتصابها، وثالثة عصية على التحقق، ورابعة رجعية لكنها تعرب بالواو لأنها جمع مذكر سالم، يقف جمع التكسير ليحتل مشهد الصدارة في ربيع مصر الثوري.

فضائيات الربيع

ورغم أن "برامج" هي جمع تكسير لأنها ليست عاقلاً، إلا أنها باتت تشكل وتوجه وتحدد عقول الملايين في زمن الربيع! برامج الـ "توك شو" تحولت إلى ضيف مزمن في

غالبية البيوت. ساعات لا تتقطع من متابعة أخبار الربيع العربي، نجمت عن أشهر لا تقل طولاً من التحسر على ما آل إليه الربيع المرتقب من برد شتوي قارس تكتفه الفوضى وصيف حار يندر بقدر من العنف. قتلى في سورية، كر وفر في اليمن، فوضى في مصر، هدوء يندر بأزمة في ليبيا، مشاحنات في تونس، والقائمة طويلة! وحين يجد المشاهد نفسه مرابطاً أمام هذه الصور، فإن مشاعر الضيق، وأحاسيس الغضب، وبوادر الأزمات النفسية، تتمكن منه شاء أم أبى.

القنوات المصرية صنعت وجوهاً للثورة! لكن شباب الثورة من نجوم الـ "توك شو" لم ينعموا بهذا الوصف لفترة طويلة، فمنذ بدأوا يقسمون أنفسهم إلى ائتلافات ومؤسسات وأحزاب، باتت كل مجموعة شبابية يُستعان بها لتعبر عن آرائها التي لا تخلو من نقد ودم في الاتجاهات الأخرى المنبثقة من ميدان التحرير.

ويشهد الشارع كذلك بزوغ ظاهرة أخرى اسمها الضيف النجم، ويكون عادة من خبراء السياسة والأمن والمال والاقتصاد والقانون الذين يتبارون يومياً في استعراض نظرياتهم المولودة من رحم الثورة.

نظريات أخرى أقل جدية، لكنها تعكس قدرًا أكبر من الشعبية والانتشار، بالإضافة لكونها أحد أبرز أدوات البقاء على قيد الحياة. إنه سلاح النكتة. لكن نكتة ما بعد الربيع العربي تلونت بألوانه. صارت أكثر حدة، وأعمق معنى، و... غارقة في السياسة. ف "المرحلة الانتقالية" تحولت إلى "الارتباكية" وبعد تأزم الأمور أكثر صارت "الانتقامية"، والرئيس "التوافقي" الذي كان مقترحاً قبل برفض قاطع، وسخروا منه بتحويله إلى "تشاركي" تارة لاشارك غير تيار فيه، و"توافقي" تارة أخرى لحجم النفاق السياسي الظاهر على السطح. وبدلاً من رفع شعار "الثورة مستمرة" تحول بعد عام ونصف من الانتظار إلى "الثورة متبيلة بنيلة مستمرة". وبسبب هذه النيلة، وجد المصريون أنفسهم أمام خيارين في الانتخابات الرئاسية أغضبا الكثيرين، فغنوا: لا اخترناه ولا بايعناه! نجح إزاي سبحان الله، وذلك بعد ما شاهد العالم مناظرة تاريخية بين مرشحين كانا الأقوى في السباق،

فانتهت المناظرة لصالح مرشح ثالث، وانتهت الجولة الأولى من الانتخابات بالإعادة لمرشحين آخرين!

حالة الشارع الملتبسة تتعكس تماماً في تلك القصة الخيالية المتداولة عنكبوتياً وواقعياً. إذ يقال إن مجموعة من التيارات السياسية مرت بفتاة تغرق، السلفي رفض أن يمد يده لأنه متوضئ، في حين أصر عضو جماعة "الإخوان المسلمين" أن يعود لطلب استئذان المرشد قبل إنقاذها، في حين سارع شاب من "حركة 6 أبريل" إلى عمل وقفة صامتة، ونصحها الليبرالي بأن تخلع ملابسها حتى تكون خفيفة وتقب على سطح المياه. في الوقت نفسه، دمعت عينا رئيس الوزراء وهو يعلل بطء الحكومة في إنقاذها بأن الجهات المختصة لم ترسل العوامة اللازمة، وتساءل: هل لو ماتت تكون غريقة أم شهيدة لإبلاغ المجلس القومي لضحايا الثورة ومصائبها؟ أما المجلس العسكري فشكّل لجنة تقصي حقائق لمعرفة الطرف الثالث الذي دفعها في المياه، وتساءل حزب الكنية مشككاً في أخلاقيات الفتاة ونواياها و عما جعلها تذهب صوب المياه أصلاً؟ وتتراوح نهاية القصة بين نهاية ثورية تؤكد أن أحد الثوار الشرفاء قفز في المياه لإنقاذها، في حين تشير النهاية الشعبية إلى أن الفتاة "ماتت كما يموت غيرها، والله يرحمها".

رحم الله الجميع!

يقول أحدهم للآخر: "ومنذ وقع الشهداء، نهتف: يا نجيب حقهم (الشهداء) يا نموت زيهم"، فيسأله الثاني: "وجببتوا حقهم؟"، فيأتي الرد: "لأ، بنموت زيهم".